مرجعيات القصص الديني في شعر أميّة بن أبي الصلت الثقفي

ختام سعيد سلمان*

تقديم

تقوم هذه الدراسة على محورين هما: الكشف عن الحياة الدينية عند الجاهليين عبر الشاعر الثقفي أمية بن أبي الصلت، والرد عملياً على التهمة التي وجّهها الدكتور طه حسين إلى الشعر الجاهلي حين قال: "إن هذا الشعر يظهر لنا حياة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني"،[1] فالقارئ لشعر أمية يفاجأ بأنه كرس كلية شعره لخدمة الفكر الحنفي، القائم على وحدانية الله، فوقف في الناس واعظاً، ومرشداً، ودليلاً لهم إلى شواطئ الهدى والإيمان.

أما المحور الثاني فالقصدُ منه البحث عن مرجعيات شعر أميّة، والنظر في النصوص الأصلية التي تأثر بها، حيث كانت الكتب السماوية المقدسة مورداً غزيراً نهل منه الشاعر، وقد ظهر هذا بوضوح في ضوء مقارنة النص بالنص، على مستوى اللفظ والدلالة والمضمون والغاية.

---

* محاضرة في قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بيرزيت، فلسطين.

[1] طه حسين، **في الأدب الجاهلي** (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص٧٣.

تمهيد وتعريف

هو أميّة بن أبي الصلت الثقفي،[1] شاعر من أبرز شعراء مدينة الطائف في العصر الجاهلي، قال أبو عبيدة: "اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وأن أشعر ثقيف أميّة بن أبي الصّلت".[2]

وذكر أبو الفرج الأصفهاني:[3] أنه كان في مطلع حياته يعمل في التجارة بين الشام واليمن، ثم لبس المسوح ونبذ عبادة الأوثان، وحرّم الخمر على نفسه، وأقام في البحرين ثماني سنوات. بعد ذلك عاد إلى الطائف، وقابل الرسول ﷺ، ودعاه إلى الإسلام، وتلا عليه بعض آيات القرآن الكريم، فلم يسلم.

فأميّة أدرك الإسلام ولم يسلم، ويبدو هذا الموضوع شديد الغرابة، ومتناقضاً مع ما عرف عن أميّة في الجاهلية من أنّه كان من الحنفاء، والحنفاء: جمع حنيف وهي صفة لإبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، وحنيف تعني المائل عن الشرك، وملة إبراهيم هي ملة التوحيد، والإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان باليوم الآخر. وأميّة نفسه جسّد هذه الإيمانيات في شعره، الذي كرّسه لوعظ الناس وهدايتهم، كقوله:[4]

إنَّ آيـــاتِ ربّـــنا بيّـــنات ... مـــا يمـــاري فـــيهنّ إلا الكفورُ
خلـــق اللـــيلَ والـــنّهارَ فكُـــلٌّ ... مُـــسْتبينٌ حـــسابُه مقـــدورُ
كـــلُّ دينٍ يوم القيامةِ عند اللـــ ... ـــــه إلا ديـــنَ الحنـــيفةِ بـــورُ

فالشاعر يقرُّ بوجود الله ووحدانيته، ويجادل أولئك الذين يشككون في وجوده

---

[1] اسم أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف كما ورد في ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ)، **الشعر والشعراء**، تحقيق مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ص٢٨٠؛ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، **الأغاني** (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت)، ج٤، ص١٢٠.

٢ أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج٤، ص١٢٢.

[3] المرجع نفسه، ج١٧، ص٣١٨-٣٢٢.

[4] الحديثي، بهجة، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره** (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٥)، ص٣٣٧-٣٣٩.

مع أن الآيات الدالة عليه كثيرة وبيّنة. ولا ينكرها إلا كافر ممعن في كفره مصرٌّ عليه. وهو يؤمن بالله الواحد الأحد، ولا يشرك به، وينفر من عبادة الأرباب الذين لا يسمعون من يدعوهم. كقوله:[1]

رضـــيتُ بك اللهمَّ رَبّاً فلن أَرى أديـــنُ إلهـــاً غـــيرك الله ثانـــياً
أديـــنُ لـــربٍ يُستجاب ولا أُرى أديـــنُ لمنْ لم يسمعِ الدهر داعياً

وهذه المعاني التي عبر عنها أميّة تتفق مع المعاني الإسلامية التي دعا إليها القرآن الكريم. ومثال ذلك: "كل دين يوم القيامة..." يقابل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وأما قوله: أدين لربّ يستجاب...فيبدو كأنه نظم مباشر لمعاني القرآن و ألفاظه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤).

ومن زاوية أخرى، فقد روي أن الرسول ﷺ كان يستمع إلى شيء من شعر أمية، لما فيه من دين وتحنّف. فقد جاء في "صحيح مسلم" عن عمرو بن الشريد عن أبيه[2] أنه قال: "ردفت رسول الله يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» "قلت: نعم. فقال: «هيه»، حتى أنشدته مائة بيت. فقال ﷺ: «لقد كاد ليسلم».[3] وفي رواية أخرى قال: «آمن لسانه، وكفر قلبه».[4]

ويبقى التساؤل مشروعاً وقائماً: لماذا لم يسلم أميّة؟

حاول القدماء تفسير ذلك بمبدأ الحسد للرسول الكريم، فأمية قرأ الكتب السماوية في الجاهلية كالتوراة والإنجيل، وكان يعلم أن نبياً سيبعث من العرب، فهيأ

---

[1] بهجة الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص٣٦٨.

[2] هو صحابي مات في خلافة يزيد بن معاوية. ابن سعد، محمد بن رفيع الزهري، **الطبقات الكبرى** (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧)، ج٥، ص٥١٣.

[3] القشيري، مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**،كتاب الشعر، باب في إنشاد الأشعار، (القاهرة: المطبعة المصرية، د.ت)، ج١٥، ص١١.

[4] ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **المعارف** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٠)، ص٢٨.

نفسه ليكون هذا النبي. فلما بُعث الرسول ﷺ، وخرجت النبوّة من أمية، حسده وكفر به. ووقف إلى جانب المشركين في عدائهم للاسلام، وكان شعره شديد القسوة على المسلمين، حميم العاطفة مع المشركين. وهذا واضح في تلك القصيدة التي نظمها في رثاء قتلاهم في غزوة بدر،[1] وكان قد قتل فيها ابنا خال له، وكان الرسول ﷺ نهى عن روايتها، ومع ذلك رويت. وفيما يلي مختارات منها يبكي فيها الشاعر قتلى قريش، ويحرّض على أخذ الثأر لهم:

هـــلا بكـــيت علـــى الكـــرا م بـــني الكـــرام أولي الممادحْ
كـــبكا الحمـــام علـــى فـــرو ع الأيـــك في الغـــصن الجوانحْ

إلى أن يقول:

لله درُّ بـــــــني علـــــــيٍّم أيّـــــمٍ مـــــنهم ونـــــاكحْ
إن لَمْ يغـــــــيروا غـــــــارة شـــعواء تجـــر كـــل نـــابحْ

وظلّ أمية على كفره حتّى وفاته في السنة الثامنة للهجرة.[2]

القصص الديني في شعر أمية: دراسة مقارنة

القصص الديني: هو كلّ قصة موضوعها الأساسي الرسل والأنبياء، وقد تضمّن شعرُ أمية الكثير من قصص الأنبياء وأخبار الأمم والشعوب الغابرة. ونلاحظ أن القدماء تنبّهوا إلى وفرة المعاني الدينية في شعره، فقال الأصمعي: "ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة".[3] وذكر ابن سلام أنه كان يذكر في شعره من خلق السموات

---

[1] ابن هشام، عبد الملك (٢١٨هـ)، **السيرة النبوية** (القاهرة: مطبعة الحلبي بمصر، ١٩٥٥)، ج٢، ص٣٢. ذكر ابن هشام بعد أن أورد هذه القصيدة أنه أسقط منها بيتين نال فيهما أمية من أصحاب الرسول ﷺ.

[2] لم يتفق القدماء على تحديد السنة التي توفي فيها أميّة، لبسط القول انظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ)، **خزانة الأدب**، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩)، ج١، ص ٢٥١.

[3] الأصفهاني، **الأغاني**، ج٤، ص١٢٥. وجاء كلامه هذا ضمن مقولة: "...وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب".

والأرض، والملائكة، ما لم يذكره أحد من الشعراء.[1] وله لغة تكاد تكون خاصة به، وهي الإكثار من المفردات المعروفة بطابعها الديني، إلى جانب وجود ألفاظ غريبة غير معروفة حتى للقدماء من علماء اللغة. ويرى الدكتور جواد علي[2] أن في الشعر المنسوب إلى أمية، وغريبه خاصة، مادة مهمة يجب دراستها لمعرفة المنابع التي استقى منها الشاعر علمه وإلهامه، ومدى تأثره بالآراء والتيارات الفكرية التي وجدت في مكة، وخارج الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولا يمكن دراسة هذا إلا بالوقوف على اللغات الأعجمية: الآرامية والعبرانية واليونانية والحبشية،[3] فهي لغات أثّرت في الجاهلية بواسطة االعلاقات التجارية والدينية.

ومن المعروف أن المفسرين أكثروا من الاستشهاد بشعر أمية على ألفاظ القرآن الكريم وألفاظ الحديث النبوي، كما في تفسير الطبري، والتبيان في تفسير القرآن للطبرسي، والفائق في غريب الحديث للزمخشري وغيرها. ومن الأمثلة على الاحتجاج بشعر أمية على غريب القرآن ما استشهد به ابن عباس على كلمة "الشواظ"[4] في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن:٣٥):

يظل يشبّ كيراً بعد كير وينفخ دائباً لهب الشواظ

وعن قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٢)

قال: المليم هو المسيء والمذنب، أما سمعت قول أمية:..."ولكن المسيء هو المليم".[5]

هذا عن المعجم اللغوي عند أمية، والمتفق في معظمه مع ألفاظ وردت في القرآن

---

[1] الجمحي، محمد بن سلام (٢٣١هـ) **طبقات فحول الشعراء** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢)، ج١، ص٢٦٢.

[2] علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦)، ج٥، ص٣٧٩-٣٨٠.

[3] قال ابن قتيبة: "وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب، وكان يأخذها من أهل الكتاب "، **الشعر والشعراء**، ص٢٨٠.

[4] الشواظ: اللهيب الذي لا دخان فيه، السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ)، **الإتقان في علوم القرآن** (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط٤، ١٩٧٨)، ج١، ص١٦٠.

[5] السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، ج١، ص١٦٣. والشطر الأول: بريء من الآفات ليس لها بأهل.

الكريم. وإذا تركنا المستوى اللفظي إلى المستوى الدلالي، وجدنا ظاهرة التناص في المعاني بين شعر أمية والقرآن كثيرة، ومن أمثلتها قوله:[1]

وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشد أصبح باديا

وردت هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿ولاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٢).

ويتوالى هذا التقاطع في المعاني التي يتناولها أمية وما يدعو إليه القرآن الكريم بصورة لافتة للنظر، تذكرنا بما ذهب إليه طه حسين حين قال: "إن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن الكريم والحديث ونحوهما... ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسراً، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي إنما قدّ على قدّ القرآن الكريم والحديث، كما يقدّ الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعة".[2]

وربما كانت العلامة الفارقة التي وسمت شعر أمية –المصنّف ضمن شعراء الجاهلية– ظاهرة القصص الديني، التي احتلت مساحات كلية من قصائده ومقطوعاته الشعرية مما أضفى عليها الوحدة الموضوعية، وأعطاها أهمية خاصة تمثّلت في صياغة خطاب موجّه لخدمة المجتمع، ومعالجة الشوائب العالقة به، وعليه يكاد أمية يكون الشاعر الأوحد الذي نحا هذا النحو في شعره.

وقد التفت القدماء إلى ذلك حتّى قال عنه الكميت بن زيد: "أمية أشعر الناس، قال كما قلنا، و لم نقل كما قال".[3]

نماذج من القصص

يستطيع الدارس لشعر أمية أن يقف على الكثير من القصص الديني الذي يتناول

---

[1] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت**، ص٣٦٨.

[2] طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، ص١٠٨.

[3] الأصفهاني، **الأغاني**، ج٤، ص١٢٢.

أخبار الرسل والأنبياء، وسنحاول في الصفحات الآتية أن نقدم عرضاً تفصيلياً انتقائياً لعدد منها، مع إجراء مقارنة بين ما جاء في شعر أمية حول هذه القصص، وما تضمنته الكتب السماوية المقدسة، مثل القرآن الكريم والتوراة، في محاولة للبحث عن مرجعيات النصوص الشعرية في نصوص أخرى، قد تصل بنا في النهاية إلى معرفة المصادر التي استقى منها أمية مضامين شعره.

أولاً: قصة الخلق وآدم وحواء: قصة الخطيئة والغفران

أو هي قصة الهبوط، كما يسميها الفيلسوف الهندي محمّد إقبال.[1] وتبدأ الخيوط الأولى للقصة[2] بذكر مبدأ الخلق، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها، وباركها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام، ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان...، وسخّر الشمس والقمر، ثمّ خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩).

ويبدأ الجزء الثاني من القصة حين شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ليسكنوا الأرض ويعمروها، وأنبأ الملائكة بما أراد. ويخبرنا القرآن عن توجس الملائكة من خلق الإنسان؛ لأنه سيفسد الأرض بالمعاصي ويسفك فيها الدماء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). وبعد أن اطمأنت نفوس الملائكة خلق الله آدم من طين، ثمّ نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤). فعاقبه الله على عصيانه، وناداه قائلاً: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا

---

[1] ذكر هذا في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام" نقلاً عن: خلف الله، محمد أحمد، **الفن القصصي في القرآن الكريم** (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢) ص١٨٤.

[2] وردت القصة عند: المولى، محمد جاد، **قصص القرآن** (القاهرة: المكتبة التجارية بمصر، د.ت)، ص١.

مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٨). فطلب إبليس من ربه أن يمهله إلى يوم البعث، فأجاب الله طلبه.[1]

وينتهي الفصل الثاني من القصة بطرد إبليس من رحمة الله، أما الفصل الثالث فيقصّ علينا ما حدث لآدم بعد الخلق. يذكر القرآن الكريم أنّ الله أسكن آدم وزوجه الجنة، وأوحى إليه أن يذكر دائماً نعمة الله عليه، وحذّره من إبليس وغوايته، وكان الاختبار لآدم وحواء حين أباح الله لهما أن يأكلا ما شاءا من ثمار الجنة، ونهاهما أن يقربا شجرة بعينها،[2] وكانت هذه الشجرة مدخل إبليس لآدم وحواء، فأغراهما حتّى أكلا من الشجرة، فغضب الله عليهما وطردهما من الجنة.

هذا ما جاء في القرآن الكريم، أما أميّة بن أبي الصلت فقد تحدّث عن قصة الخلق في قصيدة طويلة يزيد عدد أبياتها على خمسين بيتاً، استهلّها بحمد الله والثناء عليه، بألفاظ تفيض ايماناً وخشوعاً:

لـــك الحمدُ والنعماءُ والملك ربّنا فلا شيء أعلى منك جداً ولا مجدُ

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ لعـــزته تعـــنو الجـــباهُ وتسجدُ[3]

وإذا تتبعنا خلق آدم عليه السلام، وسجود الملائكة له، وجدنا أن الخطوط العامة للقصة حاضرة في القصيدة، ما عدا توجس الملائكة من خلق الإنسان، فمثلاً يذكر سجود الملائكة لآدم طاعة لله تعالى باستثناء إبليس اللعين.[4]

وبإذنه سجدوا لآدم كلُّهم إلا لعيناً خاطئاً مدحوراً

وأشار في أبياته إلى طبيعة العلاقة بين إبليس وآدم، وسعي إبليس (الشيطان) للإيقاع بآدم وذريته، ودفعهم لعصيان أمرالله ليكونوا طعاماً للنار.

---

[1] انظر سورة ص الآيات: ٧٩-٨١، وسورة الحجر الآيات: ٣٦-٣٨.

[2] قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٣٥.

[3] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص١٧٥، القصيدة ٢١.

[4] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص٢٢٢.

هو القائد الداعي إلى النار لابثاً ليوردنا مـــــنها ولا يتوردُ[1]

ولم يذكر أمية -فيما بقي من شعره- سكن آدم وحواء في الجنة، وطردهما منها لأنهما أكلا من الشجرة المحرّمة.

قصة آدم وحواء كما جاءت في التوراة

وردت هذه القصة في التوراة/سفر التكوين هكذا: "... بأنّ الرب جبل آدم من تراب ونفخ في أنفه نسمة الحياة، وغرس الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم، وتحدثنا التوراة عن مواصفات هذه الجنة، وأن الرب أوصى آدم أن يأكل من جميع أشجارها، ما عدا شجرة معرفة الخير والشر، لأنه حين يأكل منها، فإنه يموت. وتذكر التوراة بعد ذلك كيف خلق الله حواء، إذ أخذ واحدة من أضلاع آدم وهو نائم وصنع منها امرأة وأحضرها إلى آدم. وكانت الحية أحيل الحيوانات البرية فأخذت تزيّن لحواء الأكل من الشجرة المحرمة، فأخذت حواء من ثمرها وأكلت، وأعطت آدم فأكل، فانفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانان... وحين سألهما الله عن فعلتهما؟ قالت المرأة: الحية أغرتني فأكلت. فقال للحية: ملعونة أنت من جميع البهائم، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه...".

وأما آدم وحواء فقد أخرجهما الله من جنة عدن إلى الأرض قائلاً لآدم: "بعرق وجهك تأكل خبزك، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى تراب تعود".[2]

هذه هي قصة الخلق كما جاءت في التوراة، وبالمقارنة بينها وبين ما جاء في القرآن، نجد أن الفروق طفيفة منها: أن الذي أغرى آدم وحواء للأكل من الشجرة

---

[1] المرجع السابق، ص١٨٢.

[2] التوراة: الإصحاح الثاني والثالث.

وعصيان أمر الله هو إبليس أو الشيطان، وأن العداوة بدأت بينهما منذ ذلك الحين، أما في التوراة فكانت الأفعى، وذهب الجاحظ[1] إلى القول إن الأفعى في بيت أمية:

كذي الأفعى يربيها لديه وذا الجنّ أرسله يسابُ

هي الحية التي كلّم إبليس آدمَ من جوفها، وهذا يعني أن إبليس هو الحية، والحية هي المظهر المادي المرئي لإبليس، فهما شيء واحد، من باب تعدّد الأسماء والمسمى واحد. فالخلاف إذن ظاهري؛ لأن الغاية واحدة. والقصة تجسد استمرار الصراع بين قوى الخير والشر، فالشيطان/الأفعى يتربّص بالإنسان ويوحي له بالشر كي يقع في الخطيئة ويدخل النار.[2] فهدف القرآن منها ليس العرض التاريخي المحض، بل التوجه إلى أن يجعل لها مغزى عاماً أو مضموناً فلسفياً، ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأماكن التي من شأنها أن تحدد معنى القصة بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معينة.

ثانياً: قصة نوح والطوفان

جاء في التوراة أنه نوح بن لامك بن متوشالح، وأنجب ثلاثة أولاد هم: سام وحام ويافث. وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله، وفي أيامه كثر الشر، وامتلأت الأرض ظلما.[3] أما في القرآن فقد وردت قصة نوح في أكثر من أربعين موضعاً، وذُكرت مفصّلة في عدة سور وهي: الأعراف، وهود، والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح.[4] وخلاصة هذه القصة أن قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام، ويردون كل شيء في الحياة إليها، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام، فدعاهم إلى الله فأعرضوا، فناضلهم

---

[1] الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي بمصر، د.ت)، ج٢، ص٣٢٢.

[2] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ص١٨٤. وجاء فيه أن محمد إقبال قال: "إنها قصة رمزية أو أسطورية".

[3] **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح السادس.

[4] ذكرت أيضاً في سورتي الصافات ويونس.

وجادلهم، ووجّههم إلى النظر في سر الوجود وإبداع الكائنات, وبعد جهد جهيد آمنت به قلة، أما الأغلبية فهزئت به.[1]

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل ضاق صدره، وطلب من الله أن يهلكهم: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا،إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦-٢٧)، فاستجاب الله دعاءه وأوحى إليه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧). فاتخذ مكاناً قصياً، وأعد الألواح والمسامير، وأخذ يعمل حتى استوت السفينة، وجاء أمر الله بأن يصعد إليها، وأن يأخذ معه مَنْ آمن من قومه وأهله، وأن يحمل من كل زوجين اثنين. ثم كان الطوفان، وأشرف نوح من فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان،[2] وكان قد اعتزل أباه، ورغب عن دينه، وآوى إلى جبل ليعصمه من الماء، ولكنه هلك فيمن هلك، ولما انتهى الطوفان، رست السفينة على جبل الجودي، وهبط نوح ومن معه إلى الأرض.

أما القصة كما جاءت في ديوان أمية بن أبي الصلت، فإننا نذكر في البداية أنها وردت في أكثر من مقطوعة شعرية, وإذا جمعنا ما جاء في هذه المقطوعات بعضه إلى بعض أمكننا أن نخرج القصة على النحو الآتي:

قدم الشاعر نوحاً في ثوب الشخص التقيّ الذي يفعل الخير، ويمتثل لأمر الله، ولذلك دعا له بالجزاء الحسن، وقدّمه إلى الناس كي يقتدوا به:

جـــزى الله الأجـــلّ المرءَ نوحا جـــزاء الخـــيرِ ليس له كِذابُ
بمـــا حملـــت ســـفينته وأنجتْ غـــداة أتـــاهم الموتُ القلابُ[3]

---

[1] جاد المولى، **قصص القرآن**، ص١٣-١٤، وأيضاً عند سليمان الموسى، **الأدب القصصي عند العرب** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، ص١٤٢. أما في القرآن الكريم فقد وردت هذه التفاصيل في سورة هود، الآيات: ٢٥-٤٨.

[2] جاء في التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السادس، أن جميع أبناء نوح وهم سام وحام ويافث صعدوا معه إلى الفلك، وأن كنعان هو ابن حام وليس ابن نوح.

[3] الحديثي، **أمية بن الصلت حياته وشعره**، ص١٥٧.

وهذا المعنى قريب من المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٥).

ثمّ تحدث عما حمل نوح معه من المخلوقات البشرية والحيوانية، وما وفر لها من الطعام والشراب:

تـــصرخ الطـــيرُ والـــبريّةُ فيها ... مـــع قـــويّ الـــسباع والأفيالِ

حين فيها من كلِ ما عاش زوجٌ ... بـــين ظَهْري غوارب[1] كالجبالِ

ثمّ كان الطوفان، وعمّ الماء الأرض وارتفع الموج،[2] لكن السفينة لم تتضرر، لأنها منيعة الأبواب ومصفّحة بالحديد:

عشيّة أرسل الطوفان يجري ... وفاض الماء ليس له جرابُ

وذكر أمية أيضاً ما كان من ابن نوح ورفضه دعوة أبيه في الصعود إلى الفلك، ومحاولته اللجوء إلى جبل مرتفع. في أسلوب حواريّ ونقل مباشر للحدث، يحاكي أسلوب القرآن عندما تحدث عن الموضوع نفسه:

فلمـــا اســـتنار الله تَـــنورَ أرضِه ... ففارَ وكان الماءُ في الأرضِ ساجياً

دعـــا بابنه نوحٌ ألا اركبْ فإنني ... دعـــوتكَ لمـــا أقـــبل الماءُ طاغياً

فقـــال سأرقى فوق أعيْطَ حالقٍ[4] ... فقـــال لـــه لستَ الغُدية ناجياً[3]

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا... فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٢-٤٣).

ويبيّن لنا كيف ظلت السفينة تمخر عباب الماء حتّى أذن الله لها أن ترسو على الجودي:[5]

---

[1] ظهري غوارب: أعالي الموج. الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص١٥٥.

[2] المرجع السابق، ص١٥٧.

[3] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص٣١٨.

[4] أعيط حالق: جبل مرتفع لا نبت فيه.

[5] المرجع السابق، ص٢٨٤.

وقبل أن يصل أمية إلى هذه النهاية للطوفان والملتقية في نهايتها مع القرآن الكريم، تحدّث بإسهاب عن قصة الحمامة التي أطلقها نوح لاستطلاع الأمر خارج السفينة. فعادت تلك الحمامة تحمل في منقارها عنقوداً ملطّخاً بالطين، وبعد التأكد من صدق العلامات التي جاءت بها الحمامة كوفئت على صنيعها، بأن صُنع لها طوق خاص بها يتوارثه أبناؤها من بعدها، ولا يحق لأحد غير نسلها وراثته أو سرقته. قال أمية:

فجـــاءت بقطـــفٍ آيـــةً مستبينةً ... فأصبح منها موضعُ الطين جاديا[1]
على خَطمها واستوهبت ثم طَوْقَها ... وقالـــت ألا لا تجعلِ الطوقَ حاليا
ولا ذَهَـــبا إني اخـــاف نِـــبَالهم ... يخالـــونه مـــالي ولـــيس بمالـــيا
وزدْني لطـــرفِ العينِ منك بنعمةٍ ... وأرّث إذا مـــا متُّ طوقي حماميا
يكـــونُ لأولادي جمـــالاً وزينةً ... وعـــنوانَ زيـــني زينة من تُرابيا[2]

فقضية الحمامة والطوق ليست مذكورة في القرآن الكريم، فمن أين أتى بها أمية؟ هل وردت في التوراة؟ نقدم فيما يلي عرض القصة كما وردت في التوراة.

كان نوح مع الله، وفي أيامه كثر الشر وامتلأت الأرض ظلماً فقال الإله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامي... اصنع لنفسك فلكاً من خشب، واجعل الفلك مساكن ثمّ اطله من داخل ومن خارج بالقار. ونجد في التوراة وصفاً تفصيلياً دقيقاً لطول السفينة وعرضها وارتفاعها، ثم كيف طلب الله من نوح أن يدخل الفلك مع امرأته وبنيه ونساء بيته، ومن كل حيّ من كل ذي جسد اثنين تكون ذكراً وأنثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها, وطلب منه أن يأخذ من كل طعام يؤكل. وفعل نوح ما أمره به الله.

ولما صار الطوفان دخل نوح ومن سبق ذكرهم إلى الفلك. وقد انفجرت كل

---

[2] المرجع السابق، ص٣٢٠، وكذلك جاء ص١٥٨، ٢٥٤.

[1] القطف كل ما يقطف من الثمار. الجادي: الزعفران. الخطم من كل طائر: منقاره.

ينابيع الغمر العظيم، وتعاظمت المياه كثيراً على الأرض، ومات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش... ثم امتنع المطر ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً، واستقر الفلك على جبال أراراط.

وروي أن نوحاً أرسل الغراب[1] لاستطلاع الأمر فخرج متردداً، ثم أرسل الحمامة ليرى هل قَلّت المياه عن وجه الأرض، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها، لأن مياهاً كانت على وجه الأرض، فعادت إلى الفلك. وبعد بضعة أيام أرسل الحمامة من جديد فأتت إليه عند المساء وفي فمها ورقة زيتون خضراء. فعلم نوح أن المياه قد قلّت، وبعدها كلّم الله نوحاً طالباً منه أن يترل ومن معه إلى الأرض، وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض.[2]

وإذا قمنا بالمقارنة -في حكاية نوح- بما جاء في التوراة وما جاء عند أمية، ثم ما ورد في القرآن الكريم، وجدنا أن الخطوط العريضة تكاد تكون واحدة، فالله -تبارك وتعالى- أرسل نوحاً إلى قومه ليعظهم ويرشدهم، ولكنهم أعرضوا عنه، وحين يئس منهم توجه إلى ربه طالبا منه أن يخلّص الأرض منهم ومن شرورهم، فلبّى الله دعاءه.

هذا عن الخط العام للقصة، أما التفاصيل الدقيقة فهناك بعض وجوه الاختلاف، ومنها:

١. أن القرآن لم يذكر تفاصيل واضحة عن كيفية صناعة السفينة، وعن قوتها ومتانة أبوابها، في حين جاءت هذه الأمور مفصلة في التوراة، وبصورة أقل

---

[1] قال أمية عن خيانة الغراب للديك (أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص١٥٨).

بآية قام ينطق كل شيء وخان أمانةَ الديك الغرابُ,

يروى أن الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمّار، ولم يعطياه شيئاً، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ورهن الديك، ولكن الغراب لم يعد، فخانه وبقي الديك محبوساً. الجاحظ، **الحيوان**، ج٢، ص٣٢١. كما تحدث أمية عن هذا الموضوع في القصيدة رقم: ١٤٥ ص٣١٨ في أبيات عديدة

[2] **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح ٦، ٧.

تفصيلاً عند أمية.

٢. ذكر القرآن ابن نوح الذي خالف أمر أبيه وكان مع الكافرين، وكذلك ورد في شعر أمية. أما التوراة: فذكرت أن جميع أبناء نوح كانوا من العباد المؤمنين الذين نجّاهم الله من الغرق مع الهالكين.

٣. لم يشر القرآن أبداً إلى الحمامة التي أرسلها نوح لاستطلاع الأمر بعد الطوفان، والمكافأة التي حصلت عليها من نوح عليه السلام، حين رجعت إليه وفي فمها الآية على وجود مكان يابس ترسو عليه السفينة.

لم يذكر القرآن أيضاً الغراب الذي تردد في الخروج، وكأنه لم يمتثل للأمر, في حين ورد هذا الخبر في التوراة بشكل لا يحتمل اللبس، وجاء في شعر أمية بتفاصيل إضافية لم تذكر حتى في التوراة, كطلب الحمامة أجراً من نوح عليه السلام, وهو تفرّدها بالطوق، ثم توريث هذا الطوق لأبنائها فيما بعد.

ثالثاً: قصة لوط

هو لوط بن هاران بن تارح من نسل سام بن نوح, وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام. واتخذ من مدينة سدوم في الأردن مقراً له، وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جدا.[1] وأكثر من ذلك أنهم كانوا يأتون الرجال ويذرون النساء، فلما فشت فيهم الموبقات والفواحش، أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم.

ولكنهم صدّوا عن دعوته، فسأل لوطٌ ربَّه أن ينصره على هؤلاء القوم، فاستجاب الله له، وبعث إليه الملائكة في صورة شبّان حسان. فاستقبلهم في بيته ودعاهم للنوم، وعندئذ أحاط بالبيت رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ، وطلبوا رؤية الضيوف، ولكن لوطاً استحلفهم بالله، وعرض عليهم بناته: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ،وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ

[1] **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح ١٣.

إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود: ٧٧-٧٨). فلما رأى الملائكة ما يعاني لوط من الحزن والأسى، سكّنوا روعه وأخبروه بأنهم رسل ربّه، وطلبوا منه مغادرة المكان قبل أن يحل عليه غضب الله، وأن يصطحب معه أهله وكل من له، وأن يسيروا دون أن يلتفت أحد إلى الوراء، ففعل لوط ذلك إلا امرأته، قيل لم يخرج بها، وقيل خرجت والتفتت فجاءها حجر فقتلها: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

وقد وردت قصة لوط عليه السلام وقومه في القرآن في عشرة مواضع, وكانت تتراوح بين الإيجاز والإطناب، حسب ما يقتضيه السياق القرآني، والعبرة التي سيقت من أجلها القصة. وجاءت القصة كاملة في سورة هود (٧٤-٨٣) وسورة الحجر في الآيات (٥٧-٧٧) وسورة الشعراء (١٦٠-١٧٥).

أما أمية بن أبي الصلت فتحدث عن قصة لوط عليه السلام وقومه، فذكر أولاً مكان وجودهم وهو سدوم، ثم انتقل مباشرة إلى زيارة الملائكة له، وما كان من قومه إذ طلبوا أن يخلّي بينهم وبين ضيوفه من الملائكة المكرّمين. ولكن النبي الكريم كان حريصاً على ضيوفه، وحمايتهم من شر هؤلاء الفسقة، فعرض عليهم بناته كي يتزوجوهن، ويكفوا عن فعل الفواحش، ولكنهم رفضوا ذلك العرض، وأجمعوا أمرهم على تحقيق ما يريدون.

ثم لـــوطٌ أخـــو سَـــدوم أتاها ... إذا أتاهـــا برشـــدها وهـــداها
راودوه عـــن ضـــيفه ثم قالوا ... قـــد نهيـــناك أن تقـــيم قِراها
عـــرضَ الشيخُ عند ذاك بناتٍ ... كظـــباءٍ بأجـــرع مـــرعاها
غـــضب القوم عند ذاك وقالوا: ... أيهـــا الـــشيخ خطـــةً نأباها[1]

[1] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، المقطوعة ١٣٧، ص١٣٠.

وقد عاقبهم الله على شرهم وعصيانهم، بأن غشيهم العذاب، فخسفت بهم الأرض، وأمطرت عليهم السماء وابلاً من الحجارة الطينية، وكان معهم في تآمرهم زوجة لوط، فحاق بها العذاب و لم تكن من الناجين.

أجمـــع القـــومُ أمرهم، وعجوزٌ خـــيَّب الله ســـعيها ورَجاهـــا
أرســـل الله عـــند ذاك عـــذابا جعـــل الأرضَ سُفْلَها أعلاها[1]

أما في التوراة فالقصة تشبه إلى حد كبير ما جاء في القرآن الكريم، باستثناء اختلافات طفيفة في بعض التفاصيل منها: ذكر القرآن الملائكة الذين ذهبوا إلى سدوم دون أن يحدد عددهم، كما أنه لم يحدد عدد بنات لوط، أما التوراة فقد جعلت الملائكة اثنين، وبنات لوط اثنتين: "جاء الملكان إلى سدوم مساء، وقبل أن يضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة،... ولكن لوطاً خاطبهم: لا تفعلوا شرّاً يا إخوتي هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم...".[2]

نظرة مقارنة

بمقارنة القصة في شعر أمية مع ما جاء في القرآن الكريم من ناحية وما جاء في التوراة نجد:

١. القصة في القرآن أعمّ وأشمل وأكثر وضوحاً، على الرغم من أن القران لم يورد تفاصيلَ الحديث الذي دار بين لوط وقومه. أما التوراة فأشارت إلى ذلك: "ولكنهم ألحوا في الطلب، وتقدموا لكسر الباب، فقام الرجلان وضرباهم بالعصى"، فضلاً عن تفاصيل أخرى.[3]
٢. لم يشر الشاعر إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد حاور الملائكة، وجادلهم بشأن

---

[1] المرجع السابق، ص٣١١.
[2] **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح ١٩.
[3] المرجع نفسه.

قوم لوط، الأمر الذي ذكر في القرآن.[1] كذلك لم يشر إلى الحوار الذي دار بين لوط والملائكة, وطمأنتهم له بأن الله سينجّيه والعصبة المؤمنة معه.

٣. لم يذكر الشاعر وقت إهلاك قوم لوط, ولا وقت خروجه مع المؤمنين من المدينة، في حين حدّد الزمان بدقة في القرآن.

إن شعر أمية في قصة لوط متأثر بالقرآن سواء في طريقة القص أو في الغاية منه. وجدير بالذكر أن القرآن في قصصه لم يسلك مسلك التوراة، فلم يقصّ أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصّت هي، وإنما اختار بعضهم ليقصّ قصصهم، ثم إن الغاية من القصص الديني ليس القص بحد ذاته وتوفير العناصر الفنية لهذا القص. ولذلك فإن القرآن كان حين يقصّ الخبر يغفل عنصري الزمان والمكان، كما أنه يهمل بعض التفاصيل أو ذكر بعض الأسماء، فهو يقوم بعملية اختيار أو انتقاء لبعض الأحداث دون بعض، فلم يُعنَ مثلاً بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص، أو الحاصلة في أمة تصويراً كاملاً، وإنما كان يكتفي باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه. ولعله من أجل ذلك، كان القرآن يجمع في الموطن الواحد كثيراً من الأقاصيص التي تنتهي بالقارئ إلى غاية واحدة، كما أنه لا يهتم بالترتيب الزمني أو الطبيعي في إيراد الأحداث وتصويرها، وإنما كان يخالف في هذا الترتيب كما في قصة لوط.

رابعاً: قصة سيدنا إبراهيم الخليل/ مدخل تاريخي

جاء في التوراة أنه إبراهيم بن تارح من نسل سام بن نوح، وامرأته سارة (ساراي)، وكانوا قد هاجروا من أور الكلدانيين إلى حاران، ثم إلى أرض كنعان. وحدث جوع في الأرض فانحدر إبراهيم إلى مصر، وعاش فيها مرة، ثم عاد ثانية إلى أرض كنعان ومعه لوط ابن أخيه. ولكن الأرض لم تحتمل أن يسكنا معاً، فارتحل لوط شرقاً إلى دائرة الأردن, ونقل خيامه إلى سدوم...[2]

---

[1] سورة هود: ٧٧-٨١، كما ورد هذا الحوار وافياً في **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح ١٩.

[2] **التوراة**، سفر التكوين، الإصحاح ١١-١٣.

واستقر إبراهيم في فلسطين، وكانت سارة عقيماً لا تلد، فطلبت من زوجها إبراهيم أن يدخل على جارتها المصرية هاجر، لعل الله يرزقه منها بولد، وشاءت إرادة الله أن تحمل هاجر وتلد إسماعيل. أما سارة فقد دبت الغيرة في قلبها، وطلبت من إبراهيم أن يرحل بها وبطفلها إلى أقصى الأماكن. فسار بهما إلى مكان بعيد وبقعة جرداء، حتى رحمهما الله، فتدفقت المياه من الأرض، ودبت الحياة فيهما من جديد، هذه المياه هي بئر زمزم التي ما زال يزدحم حولها الحجاج حتى يومنا هذا.[1]

وتخبرنا التوراة بعد ذلك أن سارة قد وهبها الله على الكبر إسحق، وبذلك أصبح لإبراهيم ولدان هما إسماعيل وإسحق. وحدث بعد هذا أن الله امتحن إبراهيم، وطلب منه أن يأخذ ابنه الذي يحب إلى أحد الجبال، فأخذ إبراهيم الحطب وبيده السكين، وربط إسحق ابنه، ثم مدّ يده ليذبحه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: يا إبراهيم، لا تفعل، ونظر إبراهيم فإذا بكبش في الغابة، فأخذه وذبحه، ونظراًلامتثاله لأمر الرب، فقد باركه الله.[2]

هذا ما جاء في التوراة، أما ما جاء في القرآن الكريم بخصوص إبراهيم وابنه الذبيح، فلم يكن بنفس التفاصيل أو الالتزام بالترتيب الزمني للأحداث، إذ يذكر القرآن بشارة الله لإبراهيم بغلام حليم، وحين كبر رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده –ورؤيا الأنبياء حق– فاستجاب لربه، وأخبر الغلام بما ينوي ليأنس بالذبح، فبادر الغلام بالطاعة. وفي ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠١-١٠٧).

---

[1] جاد المولى، **قصص القرآن**، ص٥٥. جاء في **التوراة**، الإصحاح ٢١ أن هذا المكان هو بئر السبع.

[2] هذا ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح٢ وذكر أن اسم الجبل هو المريا وهو الجبل الذي عليه مدينة القدس.

أما أمية فقصّ حديث إبراهيم مع ابنه الذبيح في قصيدة متعددة الروايات، إذ يقول:

ولإبراهيم المُوفّي بالنَـــــذْ رِ احتساباً وحاملِ الأَجْزالِ[1]

الأجزال: هي القطع الكبيرة من الحطب، فهذا البيت لم يحدد هوية الذبيح أهو إسحق أم إسماعيل. ولكن للبيت رواية ثانية:

مـــع إبـــراهيمَ المُـــوفي بالـــنَذْ رِ وإســـحق حامـــلِ الأجْزالِ
بكـــرُه لم يكـــنْ ليـــصبرَ عنه لـــو يـــراه في معـــشَر أقْتالِ[2]

فإبراهيم قد وفّى بنذره مع ابنه إسحق الذي كان يحبه أشد الحبَ، ولا يطيق صبراً على فراقه. فأمية يقول إن إبراهيم هو الذي نذر أن يذبح ابنه لله تعالى. وهناك رواية تقول إن إبراهيم عليه السلام، حين بشرته الملائكة بغلام قال: هو ذبيح الله، ولما كبر الولد أمره الله وحياً أن يفي بنذره:

قال يا بنيّ إني نذرتُـــــك للهِ شَحيطاً[3] فاصبْر فدىً لك حالي[4]

وقد أخبر إبراهيم ولده أنه نذره لله، فتلقى الولد الخبر بتسليم ورضا، وشجّع أباه على تنفيذ ذلك، وطلب منه ألا يدع الدم يلطخ ثيابه عند ذبحه، وأن يُحكِم وثاقه حتى لا يفكر في الهرب إذا أحس بالألم، وهذه التفاصيل انفرد بها أمية و لم ترد حتى في التوراة:

فأجـــاب الغـــلامُ أن قـــالَ فـــيه كـــلُ شـــيءٍ للهِ غـــيرَ انتحالِ[5]
فـــاقض ما قد نذرتَ لله واكفف عـــن دمـــي أن يمـــسّه سِـــربالي
واشدْد الصَّفَد أن أحيد من السكين حـــيدَ الأســـيرِ ذي الأغـــلالِ[6]

---

[1] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، المقطوعة ٨٥، ص٢٥١.

[2] المرجع السابق.

[3] الشحيط، الذبيح، الميت الذي يشحط في دمه.

[4] وردت هذه القصيدة كاملة في: الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص٢٥١ وما بعدها.

[5] غير انتحال: غير ادعاء حتى في الموت.

[6] المرجع السابق.

ثم يصف السكين التي أعدّها إبراهيم للذبح، وبعدها يصف كيف أقبل إبراهيم على ابنه يترع عنه سرابيله، وكيف قَرّب السكين من عنقه وأَمرَّها عليه, ولكنها لم تقطع، كأن الله تعالى أحال عنقه إلى قطعة من النحاس. وبينما هو كذلك، إذ فداه الله بكبش عظيم, وأمر إبراهيم أن يفك وثاق ولده, وأن يذبح الكبش فداء عنه، وهذا جزاء من الله لوالد وولده قدّما نموذجاً فريداً لخشية الله وتقواه وطاعته، فكان ردّ الله على ذلك أن يخلد هذا العمل على مدى الدهر, وأن يرد على الأب ابنه، وعلى الابن حياته.

ولـــه مديـــةُ تحايـــلُ في اللحمِ هُـــــذامٌ جَلـــــيّةٌ كـــــالهلالِ[1]
بيـــنما يخلـــعُ الـــسرابيلَ عنه فكّـــه ربُـــه بكـــبشٍ جـــلالَ
قـــال: خـــذه وأرسلْ ابنَك إني للـــذي قـــد فعلتما غيرُ قالي[2]

هذه هي قصة إبراهيم الخليل وولده كما وردت في شعر أمية, وهذه القصة في معطياتها العامة وغالبية شخوصها ومجريات حياتهم، تتفق مع ما جاء في القرآن الكريم في سورة الصافات، كما أنها تتشابه مع ما جاء في التوراة حول الموضوع نفسه. ولكنها مع ذلك ذات تفاصيل متفردة، فهي ليست نسخاً لما جاء في التوراة، كما أنها لا تتطابق تماماً وحرفياً مع ما جاء في القرآن، وفيما يلي توضيح ذلك:

- ورد في التوراة أن الله هو الذي أمر إبراهيم بذبح ابنه، وكذلك جاء في القرآن الكريم، أما عند أمية فإن إبراهيم هو الذي نذر ابنه لله، وحاول ذبحه وفاء لنذره.

- حدّدّت التوراة اسم ابن إبراهيم وهو إسحق ابن سارة، أما القرآن فلم يحدد اسمه. وجاء في تفسير الجلالين هو إسماعيل أو إسحق، فلا اتفاق على الأمر، وأن علماء المسلمين اختلفوا في تحديد المقصود، وإن كان الأرجح عندهم أنه إسماعيل وليس إسحق. وإذا عدنا إلى شعر أمية وجدنا البيت الخاص بهوية الذبيح يروى في صورتين

[1] المدية: السكين. هذام: قاطعة.

[2] المرجع نفسه.

مختلفتين إحداهما تغفل الاسم، والأخرى تقول إنه إسحق.[1] ولكن هذه الرواية متهافتة؛ لأنّ أمية يذكر إسحق قائلاً: "بكره لم يكن ليصبر عنه..." والمعروف أن إسماعيل هو البكر. وعلى أية حال، فالذبيح هو ابن إبراهيم، وعلى هذا اتفقت جميع المصادر السماوية والبشرية. وقد تصدى للحديث عن هذا الموضوع عبد الوهاب النجار في كتابه " قصص الأنبياء" حيث قال: "إن مسألة الذبح كانت قبل ولادة إسحق، وأنها حصلت بنواحي مكة، وليس كما تذكر التوراة من أنها حصلت مع ابنه إسحق في أرض المريا على أحد الجبال هناك. وتولى سليمان موسى الرد عليه باستنكار قائلاً: إن النجار يرى أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحق، لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يكون إسحق أبو اليهود هو الذبيح، ولا يكون إسماعيل أبو العرب؟ ثم يواصل التعليق: " إن نصّ التوراة أوضح من أن يقبل شرحاً أو تأويلاً. ولسنا في موقف الدفاع عن التوراة, وليس في مقدور من كان مثلي أن يثير مثل هذه البحوث, وأن يرد على القسس والمشايخ، ولكني أعيذ الحقائق من أن تصبح تحت أقلام بعض الكتاب، عرضة للذم والتحقير، خاصة متى كانت هذه الحقائق واردة في الكتب الدينية..."[2]

فالقضية خلافية كما رأينا وليس من غايات هذا البحث الوصول إلى يقين حول شخصية الذبيح، ونكتفي بالتذكير بأن القرآن لم يحدد ذلك، وأن ما يرمي إليه هذا البحث هو:

أولاً: إجراء مقارنة بين مضمون شعر أمية الديني وبين الكتب المقدسة كالتوراة والقرآن الكريم. وقد لاحظنا أنه في هذه القصة تحديداً، جاء بتفاصيل لم ترد لا في

---

[1] وردت هذه الرواية في كتاب: ناصف، علي النجدي، **القصة في الشعر العربي** (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت) ص٩٥. واعتمد عليها حين قابل ما ورد في القرآن الكريم وما جاء عند أمية بشأن إبراهيم وابنه الذبيح، واستشهد بقول أمية:

مع إبراهيم الموفي بالنذ ر وإسحق حامل الأجزال.

[2] نقلاً عن الموسى، سليمان، **الأدب القصصي عند العرب** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، ص١٥١.

القرآن ولا في التوراة، ولعلها من نسج خياله.

ثانياً: الوقوف على غائية هذه القصة التي تحكي قصة الأب التقي العظيم الذي أطاع ربّه، حتى إنّه لم يتردد في تقديم فلذة كبده -الذي انتظره بفارغ الصبر- قرباناً يعبر فيه عن مدى خضوعه وامتثاله لربّ العالمين: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٩).

ثم هذا الابن الذي يتقبل مصيره بصبر وثبات، طالما أنه في سبيل الله، ويشجّع الأب على تنفيذ الأمر، وكأنه يخفف عنه الأسى والحزن وهو يذبح بيده ولده وحبيبه، فيكافئهما الله، ويخرجهما من المحنة سالمين، مباركين إلى الأبد.

فالغاية من هذه القصة الدينية ليست البيان والتفصيل بل الموعظة والاعتبار, ولا يجوز أن ننظر إليها نظرة ظاهرية خارجية، بل نظرة عمق واستبطان تجسد قمة الإخلاص في الطاعة عند إبراهيم، وتضرب المثل الأعلى في التضحية وجهاد النفس.[1]

خامساً: ... قصص أخرى

توالى تقديم قصص الرسل والأنبياء في شعر أمية، بحيث لا تخلو منه قصيدة أو مقطوعة، وتجنباً للإطالة والإطناب نقدم تحت هذا العنوان سرداً لهذه القصص، مكتفين بالإشارة إلى بضعة أبيات للتمثيل لا للحصرومنها:

قصة موسى عليه السلام: هو موسى بن عمران بن يصهر بن يعقوب.[2] وكانت شخصية موسى من أكثر الشخصيات دوراناً في القرآن الكريم، ويرى محمد خلف الله أن سبب ذلك، ربما يعود إلى اشتهارها وشيوعها في البيئة العربية، فقد كان موسى نبي اليهود، وكان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني، حتى

---

[1] علي ناصف، **القصة في الشعر العربي**، ص ٩٨-١٠٠.

[2] عن اسمه وسيرته انظر: المقدسي، ابن مطهر، **البدء والتاريخ** (طبعة باريس١٩١٩)، ج٣، ص٨١-٨٣.

لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم في أمر النبي محمد ﷺ، وهذه السيطرة جعلتهم يقصون كثيراً أخبار موسى وفرعون، وقليلاً أخبار غيره من الأنبياء.[1]

وقد وردت قصة موسى في أكثر من سورة[2] منها: سورة طه، وسورة القصص، وسورة الصافات. وبالطبع وردت هذه القصة في التوراة بخلافات طفيفة، كما جاءت في أكثر من مقطوعة في ديوان أميّة، ونميل إلى الاعتقاد بأن هذه المقطوعات هي نتف من قصائد طويلة، لأن ما فيها يشير إلى إلمام أمية بالقصة كقوله:

قالت لأختٍ له قُصّيهِ عن جُنُبٍ وكيف تقفو بلا سهلٍ ولا جَدَدِ[3]

وهذا البيت ورد لا قبله ولا بعده، مع أن سياقه يوحي بوجود أبيات سابقة، وأخرى لاحقة. وهو يتحدث عن أم موسى وإرسالها ابنتها كي تتقصى أخباره، حينما التقطه آل فرعون بعد إلقائه في اليم, وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ١١).

ثم أشار إلى ظهور الرب لموسى في جبل الطور وتكليمه إياه، وطلبه منه أن يذهب إلى فرعون الذي تمادى في غيّه، وأن يدعوه إلى عبادة الله. فطلب موسى من ربه العون بأخيه هارون، فأعانه الله, ووجههما لدعوة فرعون ليكفّ عن طغيانه, وأن يذكّراه بنعم الله وقدراته, كبسط الأرض، ورفع السماء، وتوفير النور بالشمس نهاراً، وبالقمر ليلاً, وغيرها من الدلائل والآيات الواضحة لمن كان يعقل أو يعي، كقوله:

فقال أَعِنّي يا ابَن أمي فإنني كثيرٌ به يا ربّ صِلْ لي جناحيا[4]

فقلت له:

يا اذهبْ وهارونَ فادعُوَا إلى الله فرعونَ الذي كان طاغيا

---

[1] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ص٢٣٤.

[2] سورة طه: ٩-٩٨، سورة القصص: ٣-٤٣، سورة الصافات: ١١٤-١٢٠.

[3] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت حياته وشعره**، ص٢٠٣. يقفو: يتبع. الجدد: الأرض الغليظة.

[4] المرجع السابق، ص٣٦٩-٣٧٠.

ومن قصص الأنبياء التي أوردها أمية قصة عيسى بن مريم عليهما السلام. وقد وردت القصة في القرآن الكريم في سورة آل عمران، وفي سورة مريم.وجاء في القرآن أن جبريل تمثل لها في صورة بشر سويّ الخلق، فنفخ في جيب درعها، فحملت بعيسى، فلما ظهر الحمل اتهموا يوسف النجار وكان خطيبها، وقال قوم بل اتهموا زكريا وقتلوه.[1] فلما جاءها الطلق خشيت لائمة القوم، وقالت يا ليتني مت قبل هذا، وقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٣-٢٥).

وذكر أمية بن أبي الصلت هذه القصة في شعره،[2] واستهل حديثه بالقول إن الله تعالى قد جعل من حمل مريم بولدها عيسى -عليهما السلام- آية تدل على عظيم قدرته, وعجيب صنعه:

وفي دينكم من ربّ مريمَ آيةٌ ... مُنَبِّئةُ بالعبدِ عيسى بن مريمِ
أنابت لوجهِ اللهِ ثم تبتّلتْ ... فسبّح عنها لومةَ المتلّومِ
فلا هي همّت بالنكاح ولا دنتْ ... إلى بشرٍ منها بفرجٍ ولا فمِ

فمريم امرأة عاشت حياة غير عادية، انقطعت لعبادة الله، وزهدت في كل شيء، وبينما هي كذلك جاءها -بعدما نام أهلها- الملك, وخاطبها يخبرها أنه رسول الله إليها ليهب لها غلاماً:

تَدلّى عليها بعدما نام أهلها ... رسولٌ فلم يُحْصَرْ ولَم يَتَرمرمِ[3]
فقال ألا لا تجزعي وتُكذّبي ... ملائكةً من ربِ عادٍ وجُرْهمِ
أنيبي وأعطي ما سُئلتِ فإنني ... رسولٌ من الرحمن يأتيك بابنِمِ

---

[1] المقدسي، **البدء والتاريخ**، ج١، ص ١١٨-١٢٠.

[2] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت**، المقطوعة ١١٩: ص٢٩٠-٢٩٢.

[3] الحصر: ضرب من العِيِّ. يترمرم: يصمت ولم يتكلم.

وبعد أن تأزمت الأمور جاءت الرحمة الإلهية في الوقت المناسب، على لسان هذا الصغير النبي المتكلم الذي أنطقه الله ليدفع عن أمّه التهمة، مبيناً أنه آية من آيات الله، وأن الله بعثه نبياً، وعلّمه كل شيء، ونزّهه عن الفحش والأثام.

فأدركهـــا من ربّها فيض رحمة ... بـــصدقِ حديث من نبَيٍ مكلَّمِ
فقـــال لهـــا إني مـــن اللهِ آيةٌ ... وعلّمـــني واللهُ خـــيرُ معلـــمِ

وفي محاولتنا لإجراء مقارنة بين ما جاء عند أمية عن عيسى وأمه عليهما السلام، وما جاء في القرآن الكريم، نجد أن معانيه جاءت متطابقة إلى حد كبير مع القرآن وإن غابت منها بعض التفاصيل، كلحظة الميلاد عند جذع الشجرة، ونوع طعامها وشرابها، كما أنه لم يسهب في تصوير حالتها النفسية لحظة المخاض. كذلك لا نعثر في ديوان أمية على أيّ إشارة تتصل بدعوة المسيح لليهود، وما جاء به من المعجزات وكيف انتهى أمره، في حين نجد مثل ذلك في القرآن، وكذلك في العهد الجديد (الإنجيل). ونكرر في هذا المقام ما قلناه في مكان آخر، من أن أمية التفت إلى المعنى العام أكثر من التفاته إلى تقديم قصة ذات تفاصيل متنوعة, لأنه يقوم بدور الواعظ وليس بدور القاص الفنان، كما نعتقد أن بعض أبيات هذه القصيدة قد سقط، وهذا السقوط متكرر في ديوان أمية، إذ نجد عدداً كبيراً من الأبيات المدرجة في هيئة مقطوعات مستقلة، مع أن الصلة بينها واضحة في المعنى والمبنى.

ومن القصص التي ذكرها أميّة أيضاً قصة ثمود والناقة التي وردت في المقطوعة ٤٤،[1] ومن المعروف أن هذه القصة وردت في القرآن الكريم في أكثر من سورة, ومن أوائل السور التي نزلت فيهما سورة الشمس وسورة القمر، كما جاءت أخبار عنهما في كل من: الأعراف والشعراء والنمل.

كذلك ذكر أمية، من بني اسرائيل، سليمان عليه السلام وأباه داود. وداود كما جاء في

[1] الحديثي، **أمية لن أبي الصلت**، ص٢١٥.

التوراة،[1] هو ابن يهوذا الذي اسمه يسيّى، وكان داود[2] مشهوراً بعمل الدروع، وقام ملكاً على بني إسرائيل لمدة أربعين سنة.

أما سليمان فقد أسال الله له النحاسِ في ملكه ثلاث ليال، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ (سبأ: ١٢)، ويبدو أن أمية كان على علم بهذا الأمر:

وسليمانُ إذ يسيلُ له القِطْرُ على ملكِهِ ثلاثَ ليالِ[3]

كما وردت إشارات أخرى في شعر أمية توحي بعلمه بعدد آخر من الأنبياء، ولكننا لم نقف عندها الوقفة المناسبة، لعدم ورودها في قصائد كاملة وافية، بل جاءت منثورة في الديوان في البيت الواحد أو البيتين، وكأن هذه الأبيات ظلت شاهدة أمام الزمن على ضياع قسم كبير من شعر هذا الشاعر المتميز.

مرجعيات شعر أمية

لم يقتصر أمية في شعره على تقديم القصص الدينية والتاريخية، بل كرّس غالبية شعره للوعظ والإرشاد، وكان القص جزءاً مكملاً لعمله، وكأنه يقدم الدليل المادي الحقيقي على صدق ما يقول، ويدعو الناس إلى أخذ العبرة والعظة من الأمم السابقة. ولولا جاهليته لاعتقدنا أنه يفعل ذلك من منظور ديني خالص منطلقاً من قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ويدلّ شعره على أنه كان على علم بأخبار الأقدمين وقصصهم، خاصة الأنبياء والرسل. والتساؤل الكبير الذي يواجهنا هنا: من أين استقى أمية هذه المضامين العقائدية الوعظية؟ وما المصادر التي اطلع عليها واستوعبها، حتى استطاع أن يوظّفها

---

[1] **التوراة**، سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١٧.

[2] الحديثي، **أمية بن أبي الصلت**، ٢٥٦.

[3] المرجع السابق، ص٢٥٨.

بشكل عميق في شعره؟ هذا التساؤل يقودنا إلى ما يسمى بظاهرة التناص في شعر أمية (Intertextuality)، وينطوي مفهوم " التناص" على أن النص أفق مفتوح على أفكار ومعتقدات... قابلة للتلقيح والاندماج، ومستقرة في الذاكرة الفردية أو الجماعية للإنسان في كل زمان ومكان.[1] ومعنى ذلك أن النص يتفاعل مع غيره من النصوص، كما يعني أن النص الأول هو الأصل أو السابق الذي استقى منه اللاحق موضوعاته! واتفق النقاد -إلى حد ما- على تحديد مصطلح التناص ومنطلقاته في التوجه إلى النص باعتباره حاملاً لنصوص غائبة.[2] فما هي هذه النصوص الغائبة؟

في البداية، إن أمانة البحث العلمي تقتضي أن نقول: إن أمية لم يكن الشاعر الوحيد من شعراء الجاهلية الذين ذكروا الله والأمور الدينية, فقد ذكره أكثر من واحد من هؤلاء، وتحدّثوا عن آلائه ونعمائه، ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأســـلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... لـــه الأرضُ تحملُ صخراً ثقالاَ
دحاهـــا فلمـــا رآهـــا استوتْ ... علـــى الماءِ أرسى عليها الجِبالاَ[3]

ومن أشعار الجاهليين أيضاً التي تدور في نفس الفلك قول صرمة بن أنس بن قيس:

ولـــه هـــودّتْ يهودٌ وكانت ... كـــلُ ديـــنٍ وكلُ أمر عُضالِ
ولـــه شمّـــس النصارى وقاموا ... كـــلَ عـــيدٍ لهم وكلَ احتفالِ[4]

ومن المعروف أن هذين الشاعرين وأمثالهما لم يكونوا يهوداً ولا نصارى. وقد عدّهم الباحثون العرب على دين إبراهيم الحنيف، دين التوحيد، انطلاقاً من الآية القرآنية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (آل عمران:

---

[1] إبراهيم موسى، **آفاق الرؤيا الشعرية** (رام الله: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥)، ص١٣.

[2] المرجع السابق، ص٢١.

[3] المقدسي، **البدء والتّاريخ**، ج١، ص٧٥-٧٦.

[4] المرجع السابق، ج١، ص٧٦.

٦٧). وكذلك يستشف من أشعار الجاهليين وجود أهل الديانات السماوية بين ظهرانيهم، وجدير بالذكر أن اليهودية كانت منتشرة في اليمن ويثرب وخيبر وبعض قرى وادي القرى، كما كانت المسيحية منتشرة في اليمن وفي نجران بالذات ومنهم أصحاب الأخدود، وقد اعتنقها المناذرة والغساسنة. وهذه مؤشرات على اتصال عرب الجاهلية بأهل الكتب السماوية والتأثر بهم. وقد أشار القرآن إلى ذلك أكثر من مرة: "إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (الأعلى: ١٨-١٩). كما ذكره الرسول الكريم ﷺ، ومن أمثلته ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال: "لما نزلت سبّح اسم ربك الأعلى"، قال ﷺ: "كلها في صحف إبراهيم وموسى"[1].

وهذا يعني أن هناك أدلة مادية وعقلية تشهد بمعرفة العرب معرفة لا بأس بها بأخبار الأمم السابقة وقصص الرسل والأنبياء قبل الإسلام، على الرغم من وثنيتهم. ونذكر في هذا المجال أن محمد خلف الله[2] قسّم مصادر القصص القرآني إلى ثلاثة أنواع:

١. نوع كان معروفاً في البيئة العربية، ومن هذا النوع تلك القصص التي وردت عنها إشارات في الشعر العربي الجاهلي، كقصص أحمر عاد أو أحمر ثمود، وقصص الجن مع سليمان. والملاحظ أن هذه الأقاصيص قد كررت وجاءت في أكثر من غرض. وتفسير ذلك: أن القرآن الكريم كان يذهب مذهب من يبني الأقاصيص على ما هو مألوف أو مشهور من مسائل التاريخ وقضاياه.
٢. نوع نستطيع أن نسلم بأنه كان مجهولاً جهلاً تاماً في البيئة المكية، وذلك هو النوع الذي نزل ليثبت نبوة النبي ﷺ، وليجيب عن أسئلة المشركين للنبي ليعرفوا صدق رسالته، ومنها قصص أصحاب الكهف وذي القرنين. وجدير بالملاحظة أن هذا النوع لم يرد إلا مرة واحدة، ولم يتكرر تكرر غيره، ولم يجئ

---

[1] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج١، ص٥٢.

[2] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ص٢٣٠ وما بعدها.

لأغراض كثيرة ومختلفة. وتفسير هذه الظاهرة أن القرآن الكريم ما كان يذهب مذهب من يبني الأقاصيص على ما هو غريب ونادر، إلا حين تدعو إلى ذلك ضرورة ملحة، كأن تكون الغرابة نفسها هي المقصد والغرض.

٣. نوع يشتبه فيه القارئ فلا يدري أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثاني. ومن أمثلته قصة آدم مع إبليس، وقصة الخلق، وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وداود وأيوب وغيرهم. ونستطيع أن نعرف مدى الصلة بينه وبين البيئة العربية وبخاصة المكيّة بأمرين:

أ. طريق القص: تشعر بأنه كان معروفاً، وكان القرآن يجري فيه على أسلوب موجز.

ب. التكرار: وهذا واضح في قصص الأنبياء الذين دعوا الناس إلى عبادة الله تعالى، ثم قوبلوا بالسخرية والأذى، والغاية من تكرار هذه القصص تعزية الرسول ﷺ والتخفيف عنه، ولفت نظر أهل مكة إلى أخذ العبرة من الأمم الغابرة.

شرح وتعليق

أولاً: بالنسبة إلى النوع الأول المعروف في البيئة العربية فمصادره هي الكتب السماوية المقدسة كالتوراة والإنجيل، حيث جاور العرب أصحاب هذه الديانات واختلطوا بهم، بل إن منهم من اعتنق المسيحية أو اليهودية. وكان للتوراة أثر بارز في القصص الديني، والمظنون أنها ترجمت إلى العربية قبل الإسلام، وشاعت بين أدباء العرب آنذاك، ولكنها فقدت. أما الترجمة العربية للتوراة فقد ظهرت في العصر العباسي الثاني. ويذكر ابن النديم أن أحد علماء اليهود المتمكنين في العربية واسمه سعيد الفيّومي قد ترجم التوراة.[1] ويروى عن أمية نفسه أنه قد قرأ الكتب واتّبع أهل

[1] الموسى، **الأدب القصصي عند العرب**، ص١٢٨.

الكتاب،[1] وذكر أبو الفرج في خبر آخر أنه قرأ في كتاب الله عزّ وجلّ الأول، أي التوراة. وقد لاحظنا في مكان سابق كيف تأثر أمية بالتوراة واستفاد منها. وعلّق جورجي زيدان قائلاً: "وقد ظن البعض أنه مسيحي لكثرة ارتياده للكنائس ومجالس الرهبان".[2]

ويتفرع من هذا النوع ما أخذه العرب من ثقافات الأمم المجاورة، عن طريق السفر والتجارة، وقد جاء في شعر أمية كلماتٌ أعجمية كثيرة من لغات هذه الأمم كالعبرية والسريانية والحبشية وغيرها من اللغات التي لم تكن معروفة عند العرب، من ذلك أنه كان يسمى الله في بعض أشعاره "السِّلْطيط" و"التُغْرور"، ويعتقد أنه اقتبسها من الحبشية أو صاغها على صيغ تلك اللغة. فالأحباش يسمون الله في اللغة الأمهرية "أغزابهر"، وقد وردت هذه الألفاظ والتراكيب في مواضع كثيرة من شعره.[3]

فالكثرة الكثيرة من الرسل والأنبياء الذين قص قصصهم كانوا معروفين في البيئة العربية، ويؤكد محمد خلف الله هذا الرأي قائلاً: "ليس هناك من يدعي أن الذي قد حدث غير هذا...، وأنها من الغيب الذي لا يعرفه إلا من يطلعه الله عليه.لأن هذا القول يخالف طبائع الأشياء".[4] وجاء في القرآن الكريم ما يؤيد هذا التوجه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤).

ثانياً: أما عن النوع الثاني المجهول جهلاً تاماً في البيئة العربية فإن كلام الدكتور محمد خلف الله بشأنه غير دقيق، والأصح منه ما ذهب إليه علي عبد الحليم[5] من أن

---

[1] المقدسي، **البدء والتاريخ**، ج٢، ص١٤٤.

[2] زيدان، جورجي، **تاريخ آداب اللغة العربية** (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧)، ج١، ص١٣٦-١٣٧.

[3] الحديثي، **أميّة بن أبي الصّلت**، ص١٣٢ وما بعدها. ومثال ذلك قوله:

إن الأنام رعايا الله كلّهم هو السِّلَطْيْط فوق الأرض مقتدر

وذكر ابن جنّي أن السلطيط هو القاهر من السلاطة. اللسان مادة سلط.

[4] خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ص٢٣٢.

[5] محمود، علي عبد الحليم، **القصة العربية في العصر الجاهلي** (القاهرة: دار المعارف بمصر،ط٢، ١٩٧٥)، ص٧١.

هذه القصص (أهل الكهف وذا القرنين) لم يكن مجهولاً جهلاً تاما، بل كان معروفاً لهم وَهْماً وخيالاً، فسألوا النبي عنه "فقص عليهم القرآن القصص الحق كقصة ذي القرنين"، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٨٣). وكذلك الحال في أصحاب الكهف. ويرى الطبري أن القرآن الكريم يصور في هذه المسائل التي سئل عنها النبي ﷺ آراء أهل الكتاب فيها، ويذكر أن القصص كان معروفاً عند العرب، وأنه حين أنزل القرآن على الرسول ﷺ تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣). فالناس طلبوا من الرسول الكريم القصص، مما يدل على أنه كان لهم قصص.[1]

ثالثاً: بناءً على ما تقدم فإن قسماً من القصص الديني كان مجهولاً جهلاً تاماً، أو معروفاً بشكل غير واضح (أشياء سمع العرب عنها ولم يعرفوا قصتها) كقصة ذي القرنين وأصحاب الكهف. وقد ذكر أمية هاتين القصتين، ونحن إذا سلمنا بأنهما كانتا مجهولتين أو غامضتين في البيئة العربية؟ فهل هناك مصدرآخر استفاد منه أمية؟ وهل يمكن أن نجد هذا المصدر في القرآن الكريم؟

إذا افترضنا أن القرآن الكريم مصدر من مصادر شعر أمية فهذا يدفعنا إلى التساؤل عن الزمن الذي نظم فيه أمية هذه الأشعار؟ هل نظمها قبل مجيء الإسلام في العصر الجاهلي؟ أم نظمها بعد الإسلام متأثراً بالقرآن؟

وكان الدكتور طه حسين قد سبقنا إلى طرح هذا السؤال: هل القرآن الكريم مصدر من مصادر شعر أمية، خاصة وأن الرسول وأمية كانا متعاصرين؟ لم لا يكون أمية هو الذي أخذ عن النبي، خاصة وأنه عاصره حوالي عشرين سنة بعد البعثة؟[2]

---

[1] نقلاً عن علي عبد الحليم محمود، **القصة العربية**، ص٢١.

[2] طه حسين، **في الأدب الجاهلي**، ص١٤٥.

وكلام طه حسين يجعلنا نفترض أن أمية سمع هذه القصص من القرآن الكريم عن طريق النبي ﷺ، ثم أضافها إلى رصيده، معلوماته في المجال الديني. ويقوّي هذا الافتراض ما عرفناه من سيرة أمية، ولهفته على الموضوعات التي تحث الإنسان على عبادة الله، وتقدم له العبرة والدروس من الأمم السالفة، ومن ناحية أخرى كان المشركون يستمعون إلى القرآن ليعرفوا حقيقة الإسلام. وقد ذكر الزمخشري أن الوليد بن المغيرة المخزومي كان من ألد أعداء المسلمين، سمع الرسول ﷺ يتلو آيات من الذكر الحكيم، فتوجه إلى نفر من قريش قائلاً: "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه".[1]

وهناك سبب آخر يرفع الثقة بهذه الفرضية، وذلك حين نتعرف إلى السور القرآنية التي يتشابه معها شعر أمية شبهاً قوياً، لنجد أنها من السور المكية التي نزلت بمكة قبل الهجرة. وقد ذكر ابن سعد في طبقاته بأسانيده، عن ابن عباس أنه قال: "سألت أُبيّ بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة".[2]

ومن السور المكيّة التي يتشابه معها شعر أمية في المعاني العامة وفي بعض المفردات: الأعراف، ويونس، والحجر، والكهف، ومريم، والأنبياء والنمل، وسبأ، والقمر، ونوح، والصافات وغيرها. وقد اشتمل كتاب الله العزبز على كل شيء، "ففيه عن بدء الخلق وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة... وإغراق قوم نوح،وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود والناقة، وقوم يونس، والأولين والآخرين وقوم لوط وقوم تبّع... وقصة إبراهيم في مجادلته قومه...وقصة الذبيح وقصة يوسف، وقصة موسى وإلقائه

---

[1] الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، **الكشاف** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧)، ج٤، ص٦٥١.

[2] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**،ج١، ص١٢.

في اليم... ومجيئه إلى فرعون وخروجه...وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ... وقصة ذي القرنين وبنائه السد، وقصة مريم وولادتها عيسى عليه السلام وإرساله ورفعه... وقصة أصحاب الفيل...[1] إلى غير ذلك من الموضوعات والقصص التي ورد بعضها عند أمية بصورة قد تتفق أو تختلف مع القرآن الكريم، وإن كان قد ذهب مذهب القرآن الكريم في الغاية من القص وهي لفت النظر إلى مواطن العبرة والهداية.

خاتمة

نخلص من هذه الدراسة إلى أن أمية كان على اتصال قوي مع الكتب السماوية، وخاصة التوراة والقرآن الكريم وقد تأثر بهما كثيراً، وحالة التأثر لم تقف عند حدود استلهام النصوص/المرجعيات، بل كانت عملية نقل واعية استهدفت المضمون واللغة، وحوّلتها من شكلها المعروف إلى الشكل الشعري الموزون والمعقود بقوافٍ، دون قصد إلى التفنن في التصوير أو التكلف في أساليب التعبير, فجاء شعره على غرار الشعر التعليمي الذي يتوخّى وضوح الألفاظ وقرب المأخذ.

[1] المرجع السابق، ج٢،ص ١٦٤.